وظيفة الصحافة
فى المجتمع الحديث

للأستاذ سيد قطب

الصحافة ظاهرة اجتماعية ، رافقت المجتمع البشرى فى تطوره كضرورة أولية من ضرورات الاجتماع . وليس فى هذا القول غرابة ، فلقد وجدت الصحافة قبل أن يوجد الورق بأجيال ، بل قبل أن توجد الكتابة ! وكانت "الصحف" فى ذلك الزمان هى تلك "الألسنة" التى تنقل الخبر من جهة إلى جهة ، قريبة كانت أو بعيدة ، ثم ترتقى من نقله مجردا إلى تنظيمه وتنميقه ، ثم ترتقى من هذا إلى التعليق عليه ، وقرنه إلى أشباهه ونظائره ... ذلك أن المجتمع لايستغنى عن هذه الوظيفة فى كل أدوار حياته . ومتى وجدت الوظيفة وجد العضو الذى يؤديها . وكل مايتم بعد ذلك إنما هو التطور فى هذا العضو ليحسن أداء الوظيفة .

الصحافة إذن ظاهرة من ظواهر المجتمع...ولكنها بدورها تؤثر فى المجتمع . فيقع بينهما ذلك التفاعل الخالد بين الظواهر الاجتماعية والمجتمعات المتطورة : يرتقى المجتمع فيتطلب صحافة راقية ، وترقى الصحافة فتأخذ بيد المجتمع .

ويقع فى بعض الأحيان — وذلك غالبا فى فترات الانتقال — أن يختل بناء المجتمع وينقصه التناسق والانسجام وليس هذا شرا دائما ، بل كثيرا مايكون خيرا . ذلك أن الانسجام فى المجتمع لايتم إلا فى حالتين : حالة الرقى التام وحالة الانحطاط التام ، ففى الحالتين تكون طبقات المجتمع متقاربة فى الأحاسيس والمطامح والآمال ، وتكون الأفكار السائدة متقاربة أو متناسقة . أما فى فترات النهوض — وخاصة فى أولها — فالمجتمع يصاب برجة او برجات تخلخل انسجامه ، وتفقده اطمئنانه . ويختلف مجال الرجات الاجتماعية ، اختلافه فى الرجات الطبيعية فتكون قوية فى مركزها ثم يقل التأثر بها كلما اتسع المحيط ، حتى ليتلاشى أثرها فى الأطراف البعيدة . وهذا مجرد تمثيل بطبيعة الحال .

أما تطبيق هذا المثل على المجتمع فيكون بالنظر إلى الفئات والأوساط المتحمسة للنهضة بجانب أولئك الفارقين فى سبات الماضى ، أو المدافعين عما ألفوه من النظم والأفكار السائدة — أولئك الذين نسميهم الرجعيين أو المحافظين .

فى مثل هذه الحال يعد هذا التخلخل خيرا فى مجموعه . فلابد أن يشتط المتحمسون فى طموحهم ويتخلوا من الماضى جملة ، حتى ليؤدى هذا فى بعض الحالات إلى الترخص والاستهتار . ولابد أن يتشبث المحافظون بالأفكار السائدة ليحفظوا التوازن . أما الجامدون فطبقة غير طبقة المحافظين لايحسب لها حساب ، لأن مصيرها المحتوم هو الفناء .

فى فترات التحلل هذه لاتكون الصحافة ظاهرة اجتماعية سلبية ، إنما تكون مؤثرا اجتماعيا إيجابيا أو يجب أن تكون كذلك على أقل تقدير ! .

فالمفروض أن الصحافة تمثل أرقى عناصر المجتمع ، وتعبر عن أوسع آماله ، وتهدف إلى أقصى مطامحه . وعليها أن تتولى زمام القيادة فى فترة الانتقال . وألا تقف عند حدود تمثيل المجتمع القائم ، بل تتخطاه إلى تمثيل المجتمع المكنون فى ضمير الغيب .

وذلك هو الواجب المفروض على الصحافة العربية فى هذا الزمان .

وأحب أن أؤكد هذا المعنى وأبرزه مرة ومرة ، ذلك أن كثيرا من الصحف لاتفطن إلى هذه الحقيقة ، فتفهم بأنها مطالبة بأن تكون صورة للمجتمع الحاضر فحسب ، وتكون هذه حجتها كلما عيب عليها والحروج والتحلل .

ولقد يكون الربح والرواج هما اللذان يغريان بعض الصحف بتلبية الغرائز الهابطة فى نفوس الجماهير ، ويغريان بعضها كذلك بتلبية الأحاسيس الشعبية العامة فى الفن وغير الفن ولكن ينبغى ألا يكون الرواج المادى المؤقت هو كل مايرسم برامج الصحافة وخطتها . وإلا خرجت من الدائرة الفكرية إلى محيط التجارة .

على أننا نظلم الجماهير فى أية فترة من فترات التاريخ حين نقول : إن تلبية الغرائز والانفعالات العامة هو كل مايجذبها فى هذه الحياة . ففى الجماهير عنصر خير فى جميع الأزمان وهناك خيطان فى كل نفس إنسانية . خيط الهبوط وخيط الصعود ، وهى تستجيب لمن يستطيع أن يجذبها بمهارة بأحد الخيطين إلى هنا أو هناك . وقد يكون اجتذابها بخيط الصعود أصعب ، ولكن هذه هى مهمة الصحافة ولا سيما فى فترات الانتقال .

* * *

ويفهم بعض الدعاة الاجتماعيين اليوم أن الصحافة لاتخدم المجتمع إلا حين تتحدث عن المسائل الاجتماعية وعن صراع الطبقات . وفى هذا غلو ظاهر . فالصحافة تخدم المجتمع كلما عملت على ارتفاع عقليته ، وتوسيع مدى اهتمامه ، ونقله من الدائرة الشخصية الضيقة أو الدائرة المحلية المحدودة ، إلى آفاق أبعد ، ومحيط أرحب . وكلما أثارت فى نفسه الاهتمامات الإنسانية العالية ، وغرست فيه حب الاستطلاع والاطلاع .

فالآداب والفنون ، والعلم والتاريخ ، وسائر المعارف البشرية ليست ببعيدة عن الخدمة الاجتماعية المباشرة . ومحال أن تعتذر فى المجتمع ملكاته الطيبة ، ولا أن تحفزه لتغيير وضع من أوضاعه إذا أنت لم ترفعه إلى مستوى فكرى ووجدانى خاص . وكل المعارف الانسانية تشترك بنصيب متقارب فى هذا الرفع الذى لايتم بين يوم وليلة ، ولابد فيه من الجهد والمثابرة واستخدام جميع الطرق والأدوات .

يجب إذن أن نوسع نظرتنا إلى الخدمة الاجتماعية . فلا نحصرها فى المسائل الاجتماعية المباشرة ولا فى تصوير صراع الطبقات .. هذا جزء لابد منه فى برنامج الصحافة ، ولكنه ليس البرنامج كله فى حال من الأحوال .

* * *

ولكن هذا لا يسوقنا إلى استباحة وقت القارئ ، وإضاعته فى قراءة مالا يجدى . فالأخبار التافهة ، والحوادث الشخصية ، ومثيرات الغرائز ، ومواد التسلية الجوفاء ... كلها استغلال ردئ للطاقة المذخورة فى النفس الإنسانية وللوقت المحدود فى حياة الإنسان . ذلك أن لكل فرد طاقة ووقتا يقضيهما فى القراءة ، وهما يستنفدان فى قراءة الرخيص من القول كما يستنفدان فى قراءة المفيد . فمن الغبن إذن أن نستنفدهما فى صنف رخيص من المقروء والمكتوب !

على أننى أكاد أصف هذا النوع من الاستغلال بالجريمة ، فهى جريمة نفسية واجتماعية أن تنفق طاقة الأمة فى هذا الهذر ، مثيرين فيها حاسة الفضول ، وغريزة الجنس ، وانفعالات الحيوان . فهذه الطاقة هى الرصيد المذخور للبناء والتطور والنهوض . ونحن فى مستهل عالم جديد يتطلب من المجتمع استحضار كل رصيده من الطاقة ، ليقفز الى ركب العالم الجديد .

لقد كان واجب الصحافة للمجتمع واجبا ضخما فى تاريخ حياتها كله . وهو اليوم أضخم منه فى أى وقت مضى ، لأننا فى فترة تحول . ولأن بناء المجتمع الحالى متخلخل كحاله فى فترات الانتقال ، وعلى الصحافة أن تمسك معول الهدم بيد ، وباليد الأخرى أحجار البناء .

ولكى تستطيع أن تنهض بالواجبين معا ، ينبغى لها أن تكف عن استغلال الغرائز الهابطة ، والانفعالات العامية ، وأن تجذب خيط الصمود فى النفس الإنسانية لترفعها إلى أفق الهدم والبناء معا .

سيد قطب